

الحلقة الثانية

سلسلة أنتشار المسيحية

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا في اللقاء الماضي بالحديث عن أنتشار المسيحية بعد سفر أعمال الرسل، أي خلال العشرين قرناً الماضية.

وتبين لنا أن جميع الرسل الأوائل ساهموا في نشر المسيحية، بالرغم من الاضطهاد واستشهاد معظمهم. وقد وصلوا إلى الهند شرقاً، وإلى أرمينيا شمالاً، وإلى مصر ووادي النيل جنوباً، وإلى إيطاليا وروما غرباً. ولقد تعرض المسيحيون الأوائل إلى أقسى أنواع الاضطهاد من اليهود والأباطرة الرومان الوثنيين، راح ضحيته مئات الألوف منهم. إذ كانوا يُصلبون ويلقون أمام الوحوش الكاسرة لتفتك بهم. لكن المسيحية بالرغم من كل ذلك انتصرت. وذلك عندما أصدر الامبراطور قسطنطين مرسوم حرية العبادة في عام ثلاثمئة وثلاثة عشر، ثم صار هو نفسه مسيحياً. وفي عهد خلفائه أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي.

لكن كما ذكرنا في اللقاء الماضي، فقد كان لانتصار المسيحية وصيرورتها ديناً للدولة الرسمي، نتائج سلبية أيضاً. فمع توافر الحرية حظيت الكنيسة بالكرامة والسلطان، ولكن تسربت إليها المطامع والأهواء. وكان أشد الأخطار أن الدولة قد فرضت الآن مطالبها على الكنيسة. فهي مع أنها تبدلت من عدو إلى حليف، ولكنها أخذت تطالب مقابل ذلك، ببسط نفوذها على الكنيسة ثمناً لهذا التحالف. وزعمت الدولة أن من حقها الإشراف، لا على السلطة الزمنية فقط، بل على السلطة الروحية التي تقوم بالعبادة الرسمية. ومرة أخرى وقفت الكنيسة أمام الدولة تتحداها، وتأبى الخضوع لها، وتكر عليها تدخلها.

وهكذا باحتضان الإمبراطورية للكنيسة، تعرضت القوى الروحية لخطر الاختناق والفناء. وغدا تنفيذ القانون الكنسي، وتعيين الأساقفة في المراكز الهامة، والفصل في الخلافات العقائدية، من الحقوق التي طالبت بها الدولة. لكن الكنيسة استفادت بعد أن اعترفت بها الدولة، وذلك أنها أقامت نظامها الكنسي، ووحدت أعمالها وجهودها في كل أنحاء الإمبراطورية. فجعلت من كل مدينة أبرشية عيّنت عليها أسقفاً. ولم تخشى الكنيسة في مناسبات عديدة الوقوف أمام القيصر وتحديّه. وكان من ابرز آباء الكنيسة الذين وقفوا بحزم أمام مطالب الدولة أسقف ميلان في إيطاليا أمبروز، الذي أنتخب أسقفاً بالرغم من كونه محامياً. وقد ألف أمبروز عدداً من الكتب، ووضع ترانيم خشوعية، وأدخل نوعاً خاصاً من الأناشيد في العبادة، مازالت حتى اليوم ذخراً للكنيسة. على أن أهم أعماله التي خلّدها له التاريخ مصادقته لشاب يدعى أوغسطينوس.

كان أوغسطينوس من بلدة تاغست في شمال إفريقيا، ابنا لأب وثني وأم مسيحية تقيّة تُدعى مونيكاً. وكان أوغسطينوس يُصغي في لهفة إلى معلمه الأسقف أمبروز، بالرغم من أنه كان يميل إلى الفلسفة اليونانية الوثنية. وبعد فترة أشرق النور في عقله، وأصبح أي أوغسطينوس مسيحياً مخلصاً، وذلك في سنة ثلاثمئة وسبعة وثمانين ميلادية. وقد روى أوغسطينوس قصة اهتدائه للمسيحية في كتابه المشهور اعترافاتي. كان أوغسطينوس من أعظم المفكرين والكتاب في الكنيسة المسيحية، وأغزرهم مادة وروحا. وما فتئت مؤلفاته نبعا بالخير والخصب الروحي. وقد أفاض في كتاباته عن مدى اتكال الإنسان على الله. وأشهر مؤلفاته "مدينة الله" الذي دافع فيه عن المسيحية، ووصف الكنيسة كمدينة الله يسكنها كل العابدين، ولا تقوى عليها أبواب الهاوية. وعيّن أوغسطينوس أسقفاً في بلدة هبو بشمال إفريقيا عام ثلاثمئة وخمسة وتسعين.

عقدت الكنيسة عدة مجامع إقليمية محلية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين. لكن بعد أن تمتعت الكنيسة بحريتها، لم يكن ثمة ما يحول دون عقد مجمع مسكوني يحضره ممثلون من كل أنحاء العالم المسيحي. وهكذا تمّ عقد المجمع في مدينة نيقية بآسيا الصغرى أي تركيا اليوم، وذلك سنة ثلاثمئة وخمسة وعشرون ميلادية. واجتمع لأول مرة في تاريخ الكنيسة ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفاً. وقد قدموا من فلسطين وسورية وآسيا الصغرى أي تركيا، ومصر وإفريقية وإسبانيا وإيطاليا. وعُقد المجمع لتفنيد بدعة آريوس من الإسكندرية، الذي ادّعى أن المسيح لم يكن إلهاً، بل هو كائن وسط بين الله والإنسان. وتوصّل المجتمعون إلى صياغة قانون الإيمان، الذي عُرف فيما بعد في التاريخ بقانون الإيمان النيقاوي. وقد أكد هذا القانون أن المسيح هو من جوهر الله، وصاغ عقيدة الوجدانية الإلهية في ثلاثة أقانيم.

وبعد سنة واحدة من هذا المجمع تم تعيين اثنا عشر أسقفاً على الإسكندرية، الذي غدا رجلاً عظيماً في تاريخ الكنيسة، وكتب المؤلفات العديدة. ودافع بشدة عن قانون الإيمان النيقاوي بالرغم من اضطهاد الأباطرة له. وبعد مجمع نيقية المسكوني انعقدت مجامع مسكونية أخرى. ففي سنة ثلاثمئة وواحد وثمانين انعقد مجمع القسطنطينية، وفي سنة أربعمئة وواحد وثلاثين مجمع أفسس، وفي سنة أربعمئة وواحد وخمسين مجمع خلقيدونية.

ومن الشخصيات البارزة في تلك الفترة يوحنا فم الذهب، الذي عُيّن أسقفاً في مدينة أنطاكية سنة ثلاثمئة وستة وثمانين. ثم أسقفاً لمدينة القسطنطينية عام ثلاثمئة وسبعة وتسعين. وقد ذاع صيته كواعظ قدير. ولفصاحته وزلاقة لسانه لقب فم الذهب، أو ذي الفم الذهبي. ويُعتبر يوحنا فم الذهب أوفر الكتاب إنتاجاً بين الآباء الأولين. ولم يضاهاه أحد في اكتساب قلوب عامة الشعب.

ولكنه فشل في استمالة رجال الحكم إليه. وعُرف في تلك الفترة الأسقف سينسيوس من ليبيا في شمال إفريقيا. الذي عُين أسقفا على مدينة بتولمايس، التي كانت مسقط رأسه، وهي الآن ميناء صغير تقع بين درنة وبنغازي، وذلك في سنة أربعمئة وعشرة ميلادية.

وفي القرن الخامس الميلادي بشر باترك بالمسيحية في إيرلندا، وظل لمدة ثلاثين عاما يجاهد جهادا مضنيا. ومات بعد أن صارت إيرلندا الوثنية كلها مسيحية، فيها عشرات من الكنائس والأديرة. ومن إيرلندا خرج سيل لا ينقطع من المبشرين والمرسلين إلى بلاد اسكوتلندا، وبريطانيا وألمانيا وفرنسا ونرويج وإيسلند، ونشروا المسيحية في كل تلك البلاد. وفي القرن السادس أتى راهب من روما يدعى أوغستينوس مع معاونيه، لحمل رسالة الإنجيل إلى ملك إنكلترا. وسمح له الملك أن ينشر الدعوة بين الشعب، ولم تمض مئة سنة حتى أصبحت إنكلترا كلها مسيحية.

ومن مدرسة اكستر، وهي إحدى المدارس الدينية الكثيرة التي أنشأها المرسلون المسيحيون في انكلترا، انطلق الراهب بونيفاس إلى هولندا وألمانيا. والذي صار فيما بعد أسقف ألمانيا، حيث مات شهيدا فيها. لكن ما أن حلّ القرن الثامن الميلادي، حتى كانت القبائل الجرمانية الألمانية كلها، قد اعتنقت المسيحية، التي اضطهدتها من قبل. وكانت المسيحية قد انتشرت قبلا في بلاد اسبانيا وفرنسا. ثم انتشرت المسيحية في القرن التاسع بين كل الشعوب السلافية، في بلاد بوهيميا ومورافيا (التشيك حاليا) وهنغاريا وكرواتيا على شواطئ الادرياتيك، إلى تخوم بولندا. واعتنق دوق بوهيميا أي حاكمها المسيحية.

وكان أول المبشرين في بلغاريا هم الأسرى المسيحيون الذين أسرهم المغول، عند استيلائهم على مدينة أدرنة في تركيا اليوم، عام ثمنمئة وثلاثة عشر ميلادية. فالبلغار هم المغول الذين نزحوا من أواسط آسيا. وقد شهد هؤلاء الأسرى للمسيحية وهم في الأسر، وختم كثيرون منهم شهادتهم بدمائهم. و حوالي سنة ثمنمئة وستون بعث الملك البلغاري بورييس يطلب إيفاد معلمين مسيحيين. وذلك بناء على إلحاح أخته، التي كانت قد اعتنقت المسيحية وهي أسيرة في القسطنطينية. فأمن الملك هو شعبه البلغاري عندئذ بالمسيحية.

سنتابع أعزائي المستمعين في اللقاء القادم ان شاء الله، الحديث عن انتشار المسيحية، وخاصة في عالمنا العربي.